التصوف وأسرار الكون

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقي سرور

هذا الوجود ، بل هذا الكون العجيب ، بسمواته وأرضه وإنسه وجنه ، وجماده ونباته ، وحروفه وكلماته ، عند الصوفية ، صورة جميلة متماسكة تنتظمها روح عامة نابضة بالحركة ، مسبحة بالقدرة ، فليس فى الكون إلا حياة مشرقة ، منسقة مدبرة ، محددة مسخرة ، تجرى إلى ما قدر لها ، وخلقت من اجله .

والكون كله بما حوى ، عابد مسبح ، كل من فيه قد ألهم صلاته وتسبيحه ، كون مغنم منعم ، بموسيقى ربانية او كما يقول محي الدين : « بالإيقاع الإلهى والقول الربانى » الكون كله سماع لمن القى السمع ، ورفع عنه الغطاء : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وإذا كانت أمواج الموسيقى السابحات فى الجو من محطاتنا الأرضية ، تمر بالأذن ولا تسمعها إلا بالجهاز المعد لها ، فكذلك تلك الموسيقى فى حاجة إلى محطات وأجهزة فى قلوبنا ، أجهزة لا تتفتح إلا بالذكر والتقوى ، وكم الذكر والتقوى من أسرار وأسرار !!

كل شيء يقع تحت أبصارنا ، له حياته وله عباداته وله عجائبه وفنونه ، تحركه يد الخالق المدبرة الحاكمة ، التى أحسنت وأبدعت خلق كل شيء ، وأودعته ما شاءت وأرادت ، وكشفت بما أودعت لمن شاءت ولمن أحبت .

ليست الحياة فى هذا الكون للملك والإنسان والجن والحيوان والنبات فحسب ، بل الحياة لكل شيء ، تلك الجبال التى تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، حتى تلك الأحجار منها ما يتفجر منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، ومنها ما يسبح بحمده ويذكر بآياته . يقول ابن عربى « إن آلة النجار : ربما تعلم اكثر مما يعلم الصانع بها فإنها حية عالمة بخالقها ، مسبحة بحمد ربها عالمة بما خلقت له ، فكل شى فى الطبيعة قد أوحى إليه بما يراد منه » .

وهذه الحروف التى نكتبها لها أسرارها ودنياها ، فهى أمة قائمة بذاتها ، لها صلاتها بالسماء والنجوم ، ولها مساس بالإنسان ، وعلاقة برسالات الرسل والأنبياء .

ثم الكلمات أيضا ، أليس عيسى كلمة الله ؟ وأليست الكلمة الطيبة كالشجرة المباركة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ؟ فلا عجب إذا كانت أمة مسخرة ، طائعة وعابدة .

إنه لعالم جميل أبدعته القوة الإلهية ، تعالت وجلت قدرة الله . عالم جميل عجيب ذلك الذى نعيش فيه ، لو نظرنا إليه بالقلب والروح ، ولو مزقنا عن أرواحنا اقنعة الشهوات وحجب الظلمات .

إن مكاشفات القلب ، لتدلف بنا إلى عوالم مسحورة جميلة محببه ، مؤمنة عاقلة تهتف بالإيمان وتنادى بقدرة الرحمن ، وإلى علوم وفنون من فيض القدرة الإلهية يهبها الله لمن يشاء ويعلمها من لدنه من اجتبى واصطفى ، انها ملكة التصوف ، وإنها لدنيا الصوفية .

يقول محيى الدين : « فاعلم أن فى الخبز والماء وجميع المطاعم والمشارب والملابس والمواكب والمجالس والزهر والثمر أرواحا لطيفة غريبة ، فيها استجابة مودعة لما يراد منها ، هى سر حياتها وفيها تجلى من حب الله لعبده وعلو منزلته ، حتى سخر له ما فيه السعادة والعلم والبقاء .

وتلك الأرواح امانة عند تلك الأشياء ، محبوسة فى تلك الصور حتى تؤديها إلى هذه الروح الإنسانى ، التى قدرت له ، ورجال الله ، الذين كشف الله عن أبصارهم ، تناديهم احجار الأرض ونباتها ، بمنافعها ومضارها » .

ولأسماء الله الحسنى أيضا سرها واثرها فى حياة الإنسان والكون ، أو كما يقول محيى الدين : هى المؤثرة فى هذا العالم وهى المفاتيح الأولى التى لا يعلمها إلا هو ، وان لكل حقيقة اسما يخصها من هذه الأسماء .

فأمهات الأسماء ، هى : الحى العالم ، المريد ، القادر ، القائل ، الجواد المقسط ، وهذه الأسماء من الأسمين المدبر والمفصل ، فالحى يثبت وجودك ، والعالم يثبت احكامك فى وجودك ، وقبل وجودك يثبت تقديرك ، والمريد يثبت اختصاصك ، والقادر يثبت عدمك ، والقائل يثبت كلامك والجواد يثبت إيجادك ، والمقسط يثبت مرتبتك ، فهذه حقائق لابد من وجودها ، فلابد من اسمائها التى هى أربابها .

وهكذا لكل اسم من اسماء الله الحسنى اثر فى الكون يقوم به ، فأسماء الله تعالى : هى سر هذا الكون ، وهى التى تقوم بها الأشياء ! ولكل اسم سره فى العبادة التى لو لمسها المريد اظفر بالخير وتربت يداه بالبركات والنعم والهبات .